بنية الاعتراض في الشعر العربيِّ القديم

«دراسة في ضوء نظريَّة الاتِّصال لرومان جاكبسون»

الدكتور سالم عبد الرب السلفي

جامعة عدن – اليمن

الملخص

إن إحدى المشكلات الأساسيَّة في النقد الحديث هي كيفيَّةُ التعامل مع النصِّ القديم. ونحن نعتقد أنَّ السبيل المُثلى لقراءة النصِّ القديم التزامُ المناهج الموضوعيَّة التي تنأى بالناقد – قدر المستطاع – عن الانطباعات الأوَّليَّة والآراء الشخصيَّة والأفكار السابقة والمقولات الجاهزة. وفي هذا الإطار تقدِّم الدراسات البنيويَّة والأسلوبيَّة إنجازاتٍ مهمَّةً كلَّما التزم أصحابُهما بالموضوعيَّة التي تناديانِ بها.

وقد وقع اختيارنا على نظرية الاتصال عند رومان جاكبسون لأهمِّية هذه النظريَّة في الاحتفاء بها في كتب النقد الحديث، فلا يكاد كتاب نقديٌّ معاصر يخلو من ذكرها. لكنَّ هذا الاهتمام انحصر في الجانب النظريِّ الذي يذكر عناصر الاتِّصال ووظائفَها والتركيز في آخر الأمر على الوظيفة الشعريَّة، وهو ما أفضى إلى أن يغدو الكلام عنها مكرورًا لا جديد فيه سوى تنوُّع المصطلحات واضطراب الترجمات!

الكلمات المفاتيح

الاعتراض – الشعر العربي القديم – نظرية الاتصال – النقد الحديث.

Objection structure in ancient Arab poems

Salam Abdl rab Al Salafi

Aden-University –Yemen

Abstract

One of the main issues that faces modern Arabic criticism is how to approach ancient Arabic poems. We believe that the perfect way to read old classic text is by applying objective methods as much as possible from the critic personal opinion and personal impressions, preconception.

In the frame the structures studies and stylistic, there are accomplishments if the critic showed a good commitment as it is required.

We chose Roman Jacobson «the communication theory «as it is important and it has been used and applied in many criticism studies and books, but we noticed this was excluded in theoretical perspective, such as communication and functional elements, and it always focuses on the poetic function. This makes the theory more repeated with various terms and disturbance translation.

KeyWords

modern, Arabic, criticism, communication, preconception, structure, poems

مقدِّمة

إحدى المشكلاتِ الأساسيَّةِ في النقد الحديث هي كيفيَّةُ التعاملِ مع النصِّ القديم. ونحن نعتقد أنَّ السبيل المُثْلى لقراءة النصِّ القديم التزامُ المناهج الموضوعيَّة التي تنأى بالناقد -قدر المستطاع- عن الانطباعات الأوَّليَّة والآراء الشخصيَّة والأفكار السابقة والمقولات الجاهزة. وفي هذا الإطار تقدِّم الدراسات البنيويَّة والأسلوبيَّة إنجازاتٍ مهمَّةً كلَّما التزم أصحابُهما بالموضوعيَّة التي تنادِيانِ بها.

ويعدُّ رومان جاكبسون (1982م) أحد كبار النقاد اللسانين الذين جمعوا بين البنيويَّة والأسلوبيَّة في منطقة (الشعريَّة)، وكانت نظريَّته في الاتِّصال اللغويِّ أشهرَ إنجازاته، فقد تجاوزت حدودَ اللسانيَّات والنقد الأدبيِّ وصار كلُّ منتسبي العلوم الإنسانيَّة يكيِّفون هذه النظريَّة لتخدم حقولهم المعرفيَّة.

وتنعكس أهمِّيَّة هذه النظريَّة في الاحتفاء بها في كتب النقد الحديث، فلا يكاد كتاب نقديٌّ معاصر يخلو من ذكرها. لكنَّ هذا الاهتمام انحصر في الجانب النظريِّ الذي يذكر عناصر الاتِّصال ووظائفَها والتركيزِ في آخر الأمر على الوظيفة الشعريَّة، وهو ما أفضى إلى أن يغدو الكلام عنها مكرورًا لا جديد فيه سوى تنوُّع المصطلحات واضطراب الترجمات!

كادت هذه النظريَّة تتحوَّل إلى جسد نظريٍّ لا روح فيه، بسبب عدم استثمارها في دراسة النصوص استثمارًا شاملًا، على الرغم ممَّا تَعِدُ به من نتائج على مستوى التطبيق، فكان هذا البحث محاولة للإفادة من النظريَّة تطبيقًا بعد أن استُهلكت على المستوى النظريّ.

وقد وقع اختيارنا لتطبيق هذه النظريَّة على بنية لغويَّة متميِّزة، هي بنية الاعتراض، واخترنا دراستها في النص الشعريِّ العربيِّ القديم من العصر الجاهلي حتّى العبَّاسي، من خلال نماذجها الأكثر تداولًا في كتب البلاغة والنقد والأدب. وسبب اختيارنا هذه البنية أنَّها تتَّصف بالآتي:

1 - إنَّها بنية قصيرة، وهذا يساعد على السيطرة على المتن من جهة، ويناسب قصر هذا البحث من الجهة الأخرى.

2 - إنَّها بنية غريبة في وسطها، فتُظر إليها بوصفها حالًا استثنائيَّة وبناءً غير أصيل في هذا الوسط، وعُدَّت فرعًا على أصل وبنيةً ثانويَّة في بنية رئيسة، ومجرَّدَ متمِّم. وتوِّجت هذه الغربة النصِّيَّة اليوم بأن وُضعت بين معترضتين (-... -) فعُزلت عن باقي الكلام. كلُّ هذا دفعنا إلى التعاطف معها، وهو تعاطف ينتهي مع بدء التناول العلميِّ.

3 - إنَّها لم تحظ -بحسب علمنا- بتناول معاصر يكشف عن قيم جديدة فيها، سوى دراسة لـ(كاهنة دحمون) درست فيها الجملةَ الاعتراضيَّة في ضوء النظريَّة التداوليَّة[1].

وقد قسمنا هذا البحث على الوظائف الستِّ التي تقوم عليها نظريَّة جاكبسون، وقدَّمنا بمدخل يتناول -في إيجاز- ظاهرة الاعتراض في بعض المصادر القديمة، وأبدينا رأيًا في الظاهرة قبل

(1) .كاهنة دحمون، الجملة الاعتراضيَّة بنيتها ودلالتها في الخطاب الأدبيّ – دراسة في ضوء النظريَّة التداوليَّة.

تناول الوظائف. ثم تناولنا -في إيجاز أيضًا- نظريَّة الاتِّصال عند جاكبسون. والحرص على الإيجاز هنا يعود إلى كون الحديث عن الاعتراض ونظريَّة الاتِّصال مبذولًا في كتب كثيرة، فلا حاجة إلى إثقال البحث بتفصيل الحديث عنهما.

وأمَّا في الوظائف الستِّ -وهي صلب البحث- فقد كنَّا نعرِّف الوظيفة، ثمَّ ننتقل سريعًا إلى النظر في حضورها في بنية الاعتراض، ذاكرين أهمَّ الظواهر اللافتة في تحقُّق الوظيفة المعيَّنة في بنية الاعتراض. وكنَّا نتمثَّل بالشعر العربيِّ القديم، مفيدين -أحيانًا- من تعليقات القدماء وشروحهم، من دون التسليم بها، فربَّما نقضنا من أقوالهم قولًا، أو وافقناه، أو رجَّحناه على آخر. وهذه الاستضاءة بكلام القدماء أمر شديد الأهمِّيَّة، وهو أحد الأسس التي ينبغي أن تستند إليها قراءة النصِّ القديم وفهمُه.

وكنَّا حريصين في أثناء تناول الأبيات الشعريَّة على تخريجها من المصادر الموثوقة، وكنَّا نفضِّل التخريج من دواوينِ أصحابها ولا سيَّما المحقَّقة منها، كلَّما استطعنا إلى ذلك سبيلًا. وتوثيق النصِّ وتحقيق نسبته إلى قائله أساس آخر من أسس قراءة النص القديم وفهمِه[1].

وكنَّا نذكر سني وفيات الأعلام في المتن عقب ذكر العلم في المرَّة الأولى، زيادةً في التوثيق، ومعتمدُنا في ذلك كتابُ الأعلام لخير الدين الزِّرِكْلي[2].

ثمَّ ختمنا هذا البحث بعرض أهمِّ النتائج والتوصيات، ثمَّ الهوامش.

(1) ينظر، محمَّد حماسة عبد اللطيف، كيف نقرأ النصَّ القديم، مجلَّة جذور، ج21، مج9 ص47.

(2) الزِّرِكْلي (خير الدين بن محمود): الأعلام.

المحور الأوَّل مدخل نظريّ

الاعتراض هو أحد أشكال الإطناب، وقد عرَّفه القزوينيُّ (739-هـ) بأنَّه «أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متَّصلين معنى، بجملة أو أكثر لا محلَّ لها من الإعراب؛ لنكتة»[3]. وحدَّدت كتب البلاغة النكت أو الأغراض التي يؤدِّيها الإطناب بالاعتراض، فذكرت منها، التنزيه، والدعاء، والتنبيه، والتحسُّر، والتعظيم، والتخصيص، والاستعطاف، وبيان السبب، والمدح[4].

وقد قسَّمه ابن الأثير (637هـ) إلى قسمين «أحدهما لا يأتي في الكلام إلا لفائدة، وهو جارٍ مجرى التوكيد. والآخر، أن يأتي في الكلام لغير فائدة، فإمَّا أن يكون دخوله فيه كخروجه منه، وإمَّا أن يؤثر في تأليفه نقصًا وفي معناه فسادًا»[5].

ويرى القزوينيُّ أنَّ هناك فرقتين إزاء الاعتراض، فرقة «لا تشترط فيه أن يكون واقعًا في أثناء كلام أو بين كلامين متَّصلين معنى، بل تجوِّز أن يقع في آخر كلام أو يليه غيرُ متَّصل به معنى... وفرقة تشترط فيه ذلك لكن لا تشترط أن يكون جملة أو أكثر من جملة»[6]. وهذا الاختلاف بين الفريقين أفضى إلى تداخل الاعتراض بمصطلحات بلاغيَّة أخرى كالتذييل والتتميم

(3) القزوينيّ (أبو عبد الله، محمَّد بن عبد الرحمن)، الإيضاح في علوم البلاغة، ج1، ص313.

(4) ينظر، أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيَّة وتطوُّرها، ج1، ص246-247؛ عبد العزيز عتيق: علم المعاني، ص194 وما بعدها.

(5) ابن الأثير (ضياء الدين، نصر الله بن محمَّد)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج3، ص41.

(6) القزوينيّ، الإيضاح، ج1، ص317.

والتكميل، لكن القزوينيَّ قد حسم الأمر بتعريف الاعتراض على النحو السابق، وهو التعريف الذي استقرَّ في البلاغة العربيَّة.

ومن مقرَّرات النحو العربيِّ أنَّ جملة الاعتراض لا محلَّ لها من الإعراب[1]، ولذلك وصفتها بعضُ المصادر بأنَّها «فضلة»[2]. وفي نظرنا، تقع الفضلة في مجال تصرُّف المتكلِّم، فتعبِّر عن حرِّية أكبر في الاختيار والتوزيع، وهذه الحرِّية تقلُّ أو تنعدم في ركني الجملة الأساسيَّيْن المسند والمسند إليه.

على هذا الأساس، تقع الجملة الاعتراضيَّة في مجال الحرِّية، ومن الناحية العمليَّة كان الاعتراض من الوسائل التي كسر بها الشاعرُ حدَّة القوانين اللغويَّة والنقديَّة. ولا يخفى ما في المصطلح نفسه «الاعتراض» من دلالة على الرفض والتمرُّد والتوق إلى الحرِّية. فبالاعتراض تمرَّد الشعراء -من جهة- على قوانين اللغة التي تفرض نوعًا من التراتب والالتصاق بين العناصر اللغويَّة؛ فكسروا هذا التراتب، وفصلوا بين المتَّصلَيْن أو المتطالبَين[3]. ومن الجهة الأخرى، تمرَّد الشعراء على بعض قواعد الشعر التي فرضها بعض النقَّاد وحاولوا فيها ترسيخ منهج استقلال البيت بوحدته التركيبيَّة والدلاليَّة[4]، وتجلَّى هذا التمرُّد في تمديد الكلام عن طريق الاعتراض يُرجأ معه العنصر الثاني في الجملة المعتَرضة إلى البيت التالي، وهو ما يعرف بالتضمين أو التعلُّق[5].

وأمَّا نظريَّة الاتِّصال لرومان جاكبسون فتقوم على فكرة أنَّ أيَّة عمليَّة اتصال لغويٍّ لا بدَّ لها من توافر ستَّة عناصر هي، المرسِل، والرسالة، والمرسَل إليه، والسياق، وقناة الاتِّصال، والسَّنن[6]. ويولِّد كلُّ عنصرٍ من هذه العناصر وظيفةً، لتتشكَّل ستُّ وظائف هي على التوالي، التعبيريَّة، والشعريَّة، والتأثيريَّة، والمرجعيَّة، والانتباهيَّة، والميتالغويَّة[7].

هذه الوظائف الستُّ لا بدَّ من أن تكون حاضرة في كلِّ رسالة لغويَّة، لكنَّ هذا الحضور يتفاوت في درجته؛ بمعنى أنَّ هناك وظيفةً تكون هي المهيمنة على الرسالة، فتطبعها بطابعها الذي يمنحها تميُّزًا من باقي الرسائل، وهنا ينبغي التنبُّه إلى أنَّ «المساهمة الثانويَّة للوظائف الأخرى في هذه الرسائل ينبغي أن يأخذها اللسانيُّ المتمعِّن بعين الاعتبار»[8].

(1) ينظر: ابن هشام (أبو محمَّد، عبد الله بن يوسف)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص506. وفي هذه الصفحة وما يليها إلى (521) تفصيل في أشكال الاعتراض ومعانيه مع شواهد قرآنيَّة وشعريَّة.

(2) ابن أبي الحديد (أبو حامد، عبد الحميد بن هبة الله)، شرح نهج البلاغة، ج9، ص32.

(3) ينظر، ابن هشام: مغني اللبيب، ص521.

(4) جمال الدين بن الشيخ: الشعريَّة العربيَّة، ص192.

(5) ينظر مثالًا على ذلك النصَّيْن الآتيين في: المرزوقيّ (أبو علي، أحمد بن محمَّد)، شرح ديوان الحماسة، ج1، ص130 وج، ص171:

قول سوَّار بن المضرِّب السَّعْدي:

فلو سألتْ سَرَاةَ الحيِّ سَلْمى على أنْ قد تلوَّن بي زماني

--

لخبَّرها ذوو أحساب قومي وأعدائي، فكلٌّ قد بلاني

وقول مالك بن حزيم:

أُنْبيتُ – والأيَّام ذاتُ تجارب وتُبْدي لك الأيَّام ما لستَ تعلمُ

بأنَّ ثراءَ المالِ ينفعُ ربَّه ويُثْني عليه الحمدَ وهو مذمَّمُ

(6) ينظر، جاكبسون (رومان)، قضايا الشعريَّة، ص27؛ المسدِّي (عبد السلام): الأسلوبيَّة والأسلوب، ص157؛ صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص154.

(7) ينظر: جاكبسون، قضايا الشعريَّة، ص33؛ المسدِّي: الأسلوبيَّة والأسلوب، ص158؛ صلاح فضل: علم الأسلوب، ص157.

(8) جاكبسون، قضايا الشعريَّة، ص28.

المحور الثاني الدراسة التطبيقيَّة

بمقتضى النظريَّة، كان يتوجَّب ترتيب الوظائف حسب تسلسلها في خطاطة جاكبسون المشهورة، وهو الترتيب الذي اعتمدناه في المدخل النظريّ. ولكنّ ما إن توغَّلنا في الجانب التطبيقيّ، واستنادًا إلى التحليل الذي قمنا به للوظائف في بنية الاعتراض؛ حتَّى أعدنا ترتيب الوظائف بحسب هيمنتها وقوَّة حضورها في بنية الاعتراض.

1- الوظيفة الانتباهيَّة

هي الوظيفة المتولِّدة من قناة الاتِّصال، تَبْرز في نوع من الرسائل «مهمَّتُها إقامة التواصل وتمديده أو فصمه، وتوظَّف للتأكُّد ممَّا إذا كانت دورة الكلام تشتغل... وتوظَّف لإثارة انتباه المخاطب أو التأكُّد من أنَّ انتباهه لم يرتخ»[1]. ويرى الدكتور المسدِّي أنَّ أبرز الأدوات التي تؤدِّي هذه الوظيفة، التأكيد والتكرار والإطناب[2].

إنَّ فكرة التمديد حاضرة بالقوَّة في بنية الاعتراض من حيث إنَّ الاعتراض هو -في الأصل- بنية إطنابيَّة تمدِّد التواصل، وهو تمديد مثير لانتباه المخاطَب؛ لأنَّه يأتي قبل تمام المعنى فيلتفت إليه المخاطب بالقوَّة، ولو أنَّه أتى بعد تمامه -كما في أنواع الإطناب الأخرى- لما ضمن المتكلم انتباه المخاطَب؛ إذ يكون المخاطَب قد أخذ فائدته من الكلام ولم يعد في حاجة إلى سماع المزيد. ويتجلَّى التمديد في البنية الاعتراضيَّة عندما تعترض بين جزأين أحدُهما في بيتٍ والآخرُ في البيت الذي يليه، وهي ظاهرة ذات حضور واضح في الشعر العربيِّ القديم، نضرب مثالًا عليها قول يزيد بن الحكم (105هـ)،

يا بدرُ – والأمثالُ يضربُ بُها لذي اللبِّ الحكيمُ –

دُمْ للخليل بودِّه ما خير وُدٍّ لا يدومُ[3].

فقد اعترضت الجملة «والأمثال يضربها لذي اللبِّ الحكيم» بين النداء «يا بدر» وجوابه «دم للخليل بودِّه»، وعلى الرغم من طول هذه الجملة فإنَّها ليست المعنيَّة بالكلام، وإنَّما المعنيُّ هو صدر البيت الثاني «دم للخليل بودِّه» وما يليه من أمثال وحكم ونصائح في الأبيات التالية له، وما الجملة الاعتراضيَّة إلا تنبيه على أهمِّية الكلام التالي لها، وقد التفت المرزوقيُّ 421هـ إلى الوظيفة التنبيهيَّة لهذا الاعتراض، فقال، «ونبَّه بهذا الاعتراض على أن وصيَّته وصيَّةٌ حكيم، وأنَّ اللبيب العاقل يأخذ بها ويتأدَّب»[4].

وأما فكرة تأكيد التواصل فهي أساسيَّة في هذه الوظيفة، إلى درجة أنَّها تسمَّى في بعض المراجع الوظيفة التأكيديَّة[5]. وهي ماثلة في بنية الاعتراض، وقد التفت إليها القدماء، فقال المرزوقيُّ، «والجمل المعترِضة بين أنواع الكلم تفيد فيها التأكيد وتحقيق معانيها»[6]، وقال ابن الأثير وهو يتحدَّث عن النوع الأوَّل من أنواع الاعتراض الذي لا يأتي في الكلام إلا لفائدة، «وهو جارٍ

(1) جاكبسون، قضايا الشعريَّة، ص30.
(2) ينظر، المسدِّي، الأسلوبيَّة والأسلوب، ص160.
(3) المرزوقيّ، شرح ديوان الحماسة، ج2، ص1190.
(4) المرجع نفسه، ج2، ص1190.
(5) ينظر: صلاح فضل، علم الأسلوب، ص156.
(6) المرزوقيّ، شرح ديوان الحماسة، ج2، ص1054.

مجـرى التوكيـد»[1]. وقـال المرزوقـيُّ معلِّقًا على الاعـتراض في بيت عمرو بن معدي كرب الزُّبَيْدِيّ (21هـ):

ليس الجَمَالُ بمِئْزَرٍ -فاعلمْ- وإنْ رُدِّيتَ بُرْدا

«قوله «فاعلـم» اعتراض تأكَّد بـه الكلام»[2]، فجعل وظيفة الاعتراض تأكيديَّة صرفًا.

لقـد وجدنا أنَّ بنية الاعـتراض تؤدِّي الوظيفة الانتباهيَّـة بالقوَّة والفعل، فبالقوَّة من خلال خرق نمـط التركيب بإقحام بنية في أثنـاء بنية أخرى، وهـو ما يُفـضي إلى التفات المتلقِّي مـن كلام إلى كلام، ولذلـك وقـع التداخـل في الاصطلاح عند القدمـاء بين الالتفات والاعتراض[3]. وأمَّا بالفعل فمن خلال التعبيرات القائمة في بنية الاعتراض، وهو ما لمسناه في الأمثلـة السابقة وما سنلمسه في الأمثلة التالية.

واستنـادًا إلى هـذه الثنائيَّـة فـإنَّ الوظيفـة الانتباهيَّـة هي الوظيفـة الأكثر هيمنـة على بنية الاعتراض. يؤيِّد ذلك أنَّ كثيرًا من أمثلة الاعتراض كانـت مفرغة مـن الإحالة، فكثرت فيهـا أساليب الإنشاء كالنداء والدعاء والأمر والقسم والتمنِّي، وكثـير مـن هـذه الأساليب تقـوم علـى العبارات الطقوسيَّـة التي تشيع عندما يكـون هناك تشديد على الاتِّـصال[4]. وفُرُوغُها مـن الإحالة أَخْلَصها للتنبيـه؛ بمعنـى أنَّ بنية الاعـتراض لا تأتي لأداء المعنى وإنما للتنبيه إلى المعاني الموجودة حولها.

وقد التفـت النقَّاد والبلاغيُّون العرب إلى هذه الوظيفة، ورصدوها حتـى في الجملة الاعتراضيَّة القائمـة في جملة خبريَّة لا إنشائيَّة، وذلك في قول الشاعر:

واعلـمْ -فعِلْمُ المَرْءِ يَنْفَعُـهُ- أنَّ سوف يأتي كلُّ ما قُدِرا

فنصَّ القزوينيُّ -مثلًا- على أنَّ هذا الاعتراض للتنبيـه[5]. إنَّ الجملة التي يُـراد لها أن تصل إلى المتلقِّي هـي الجملة القائمة في العجز «سوف يأتي كلُّ ما قُدر» وهي البنية الحاملة للمدلول المستهدف إيصالُه، وما عدا ذلك فإنَّه في خدمة هذه البنية، من ذلك بنية الاعـتراض «وعلم المرء ينفعه» التي أُفرغت من مدلولها لتتمحَّض لأداء وظيفة التنبيه إلى أهمِّية الجملة التالية.

وعلى هذا الأساس يمكـن النظر إلى كثير من الجمـل الاعتراضيَّة في النصِّ القديم بأنَّها جاءت لأداء الوظيفـة الانتباهيَّـة، لا لأداء معنـى جديد أو إضافة معنى. وهذه النظرة ستلغي بعض الأحكام التي أطلقت على نوع من الاعتراض وُصِم بأنَّه يأتي في الكلام لغير فائدة[6] وأنَّه غير مستحسن[7]، بل ذهب العلويُّ (745هـ) إلى أنَّه ذَنْبٌ، فقال معلِّقًا على بيت النابغة الذبيانيِّ (18ق هـ) الآتي، «فهذا وأمثاله يُغتفر فيه هذا الاعتراض وإن كان لا فائدة تحتـه»[8]. وكان ابن الأثير قـد جعل هذا النوع من الاعتراض ضربين:

(1) ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص41.
(2) المرزوقيّ، شرح ديوان الحماسة، ج1، ص174.
(3) ينظر، ابن رشيق (أبو علي، الحسن بن رشيق)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2، ص45.
(4) ينظر، جاكبسون، قضايا الشعريَّة، ص30.
(5) القزوينيّ، الإيضاح، ج1، ص314.
(6) ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص41.
(7) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج9، ص32.
(8) العلويّ (يحيى بن حمزة)، الطراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج، ص93.

الأوَّل، يكون دخوله كخروجه منه، لا يكتسب به حسنًا ولا قبحًا.

الثاني، يؤثر في الكلام نقصًا، وفي المعنى فسادًا.

ونحن نتلمس في الضرب الأوَّل أنَّه محايد، ومن ثَمَّ فهو يؤدِّي وظيفة لا تفضي إلى جودة العمل أو رداءته، وإنما هي وظيفة خارج حدود الأداء الشعريِّ وواقعةٌ في حدود الأداء الاتِّصاليّ.

ومع هذا فإن النظر في الأمثلة التي قُدِّمت على هذا الضرب يكشف عن وجود شوائب من الوظائف الأُخَر، كما أنَّ البعد الجماليَّ لا ينعدم تمامًا، فقد يظهر في بعض النماذج الشعريَّة لهذا الضرب، ولكن هذا البعد - في حسباننا- لا يتحقَّق من ذات الاعتراض وإنَّما من موقع جملة الاعتراض في خطِّ الشعر وانتظامها في النسق التوزيعيّ.

يقول النابغة الذبيانيُّ،

يقول رجالٌ يُنْكِرون خَليقتي

لعلَّ زيادًا -لا أبا لك- غافلُ[1]

وقد أرجع ابن أبي الحديد (656هـ) سبب عدم استحسانه هذا الاعتراض إلى أنَّه «لا معنى تحته»[2]، وهنا يقع الاختلاف بين نظرة الناقد القديم والناقد الحديث، فالحكم البلاغيُّ بُني على أساس انعدام المعنى؛ لأنَّ الوظيفة الأساسيَّة التي يَحكم استنادًا إليها هي الوظيفة المرجعيَّة، في حين يرى النقد الحديث أنَّ انعدام المعنى نفسه هو الذي يُخْلص القول لأداء وظيفة أخرى لها أهمِّيتها في الكلام هي الوظيفة الانتباهيَّة. وقد جاء التنبيه ملاصقًا لكلمة المقطع «غافل» وهو ما أنتج بنية تضادِّيَّة بين (التنبُّه) و(الغفلة).

وعبارة «لا أبا لك» هي عبارة دُعائيَّة في أصل وضعها، فيها دعاء على المخاطب، ولمَّا كانت كذلك فهي في موقع انتباه شديد من المتلقِّي لها، ثمَّ لما كثر استعمالها احتفظت بقيمتها التنبيهيَّة وأفرغت من محمولها الدُّعائيّ، وهكذا كان استعمالها في جلِّ الشعر العربيِّ القديم، وهو أمر لم يعه كثير من النقَّاد القدماء فظلُّوا يبحثون فيها عن الفائدة (المعنى)، فإن لم يجدوها لم يستحسنوا الاعتراض، وإن وجدوها استحسنوه[3]. ولم يشفع للشاعر الكبير زُهَيْر بن أبي سُلْمى (13ق هـ) تحكيكُه قصيدتَه حولًا كاملًا -وهو ما يدفع عنه تهمة الإتيان بما لا فائدة فيه- فكان مصير قوله الآتي عدم الاستحسان[4]:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ، ومن يَعِشْ

ثمانين حَوْلًا -لا أبا لكَ- يَسْأم

إلا أنَّ الزوزني (486هـ) كشف عن وعي لسانيٍّ متقدِّم بأن جعل وظيفة هذه العبارة الوظيفة الانتباهيَّة، فقال معلِّقًا على بيت زُهير، «لا أبا لك، كلمة جافية لا يراد بها هنا الجفاء، وإنَّما يراد بها التنبيه والإعلام»[5].

2- الوظيفة الميتالغويَّة

هي الوظيفة المتولِّدة عن السَّنن أو الشفرة، وفيها يتمُّ التأكُّد ممَّا إذا كان طرفا الاتِّصال

(1) النابغة الذبيانيّ (أبو أمامة، زياد بن معاوية)، ديوان النابغة الذبياني، ص119. زياد: اسم النابغة.
(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج9، ص32.
(3) ينظر، ابن الأثير: المثل السائر، ج3، ص47.
(4) ينظر، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج9، ص32.
(5) الزوزنيّ (أبو عبد الله، حسين بن أحمد)، شرح المعلَّقات السبع ص155.

يستعملان السنن نفسه استعمالًا جيِّدًا[1]. وينبغي هنا التمييز بين اللغة الموضوع التي تشير إلى ما هو خارج اللغة، واللغة الواصفة أو الشارحة التي تشير إلى اللغة نفسها[2]، وهذه الأخيرة هي التي تؤدِّي الوظيفة الميتالغويَّة.

تؤدِّي بنية الاعتراض الوظيفة الميتالغويَّة من خلال العبارات التي تفسِّر أو توجِّه دلالة كلمة أو تعبير سابق حتى لا يفهم الكلام فهمًا خاطئًا أو معكوسًا. وتستهدف بنية الاعتراض -في هذه الحال- الكلام نفسه، فلا تعبِّر عن شيء أو حدث أو معنى، وإنَّما تبيِّن كلمة أو تعبيرًا سابقًا، وذلك في سبيل فكِّ الشفرة وتأمين عملية الفهم للكلام المقول، عندما تكون تلك الشفرة غامضة أو ملتبسة أو عامَّة.

وقد التفت القدماء إلى شيء من هذا في تناولهم الجملة الاعتراضيَّة «وأنتِ منهم» في بيت كثيِّر عزَّة (105هـ) الذي كان في صدارة شواهد الاعتراض،

لو انَّ الباخلين -وأنتِ منهم-

رأوكِ تعلَّموا منكِ المِطالا[3]

فقال ابن الأثير، «وفائدته ههنا التصريح بما هو المراد»[4]، وقال ابن أبي الحديد، «وفائدته ألا تظنَّ أنَّها ليست باخلة»[5]، وقال العلويُّ، «وفائدته التصريح بما هو المقصود من ذَمِّه، وتأكيد انصراف الذمِّ إليه»[6]، بمعنى أنَّ عبارة «وأنت منهم» جاءت تبيانًا لكلمة «الباخلين» وأنَّ المخاطَبة داخلةٌ فيهم. وبغير الجملة الاعتراضيَّة «وأنتِ منهم» تكون دلالة «الباخلين» مختلفة لأنَّها تعني الباخلين وليس منهم المتكلِّم والمخاطبة، وهذا ظاهر في خلوِّ الكلام من الاعتراض، «لو أنَّ الباخلين رأوك؛ تعلَّموا منك المِطالا»، فليس في هذا الكلام ما يدلُّ على بخل المخاطبة، والمِطال صفة تكون في الباخلين وغيرهم، فهي التأخُّر في العطاء والإبطاء في إنجاز الوعد، والتأخُّر والإبطاء ليستا مقصورتين على الباخلين.

ومن ذلك قول النابغة الذبيانيّ،

لَعَمْري -وما عَمْري عليَّ بهيِّن-

لقد نطقت بُطْلًا عليَّ الأقارعُ[7]

عبارة «لعمري» قسم، كثرت في الاستعمال حتى فقدت معناها الأوَّل الذي يكون فيه المقسم به أمرًا عظيمًا وذا شأن، ونظرةٌ سريعة في ديوان الشعر العربيّ تكشف عن هذه الكثرة في الاستعمال وفقدان القسم قوَّته المعنويَّة. وأمام هذا الاستهلاك للتعبير اللغويِّ «لعمري» تحاول الجملة الاعتراضيَّة «وما عمري عليَّ بهيِّن» استعادة القوَّة المعنويَّة له، فتضبط دلالته وتوجِّهها نحو التعظيم من شأن المقسم به. وقد كشفت الجملة الاعتراضيَّة عن وعي الشاعر بابتذال هذا التعبير لدى الشعراء السابقين والمعاصرين له، وهو أمر ينبغي الالتفات إليه في التعامل النقديِّ الحديث

(1) ينظر، جاكبسون، قضايا الشعريَّة، ص31.
(2) ينظر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(3) كثيِّر عزَّة (أبو صخر، كثيِّر بن عبد الرحمن)، ديوان كثيِّر عزَّة، ص507.
(4) ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص45.
(5) ينظر، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج9، ص31.
(6) العلويّ، الطراز، ج2، ص92.
(7) النابغة الذبياني، الديوان، ص34. الأقارع: بنو قُرَيْع من بني تميم، وكانو وشوْا بالشاعر إلى النعمان بن المنذر.

مـع الشعر القديم، من حيـث إنَّ هذه الظاهرة قد بدأت منذ عصر ما قبل الإسلام، فلا شكَّ في أنَّها استمرَّت وازدادت في العصور اللاحقة.

وكانـت الجملـة الاعتراضيَّـة تـؤدِّي وظيفـة ميتالغويَّـة من حيـث إنَّها عبارة يؤتـى بها لإقامة الـوزن، فهـي مفرغـة مـن أي محمـول دلاليٍّ وتتمحَّض لقيمتهـا الإيقاعيَّة؛ مؤدِّية بذلك وظيفة الـسَّنن الشعريِّ أو الشفـرة الشعريَّة، من جهة أنَّ الشعر يوظِّـف النظم الإيقاعيَّـة بوصفها شفرات خاصَّة به[1].

وقـد التفت القدماء إلى هـذا الأمر، والتمسوا العـذر للشاعر حين كان يضطـرُّ إلى إقحام جملة معترضة لغـرض إقامة الـوزن «فربَّما كان مجال الـكلام عليه ضيِّقًا فيلقيه طلبُ الوزن في مثل هذه الورطات، وأمَّا الناثر فلا يضطرُّ إلى إقامة الميزان الشعريِّ، بل يكون مجال الكلام عليه واسعًا، ولهذا إذا اعترض في كلامه اعتراضًا يفسد؛ توجَّه عليه الإنـكار وحقَّ عليه الذمّ»[2]. فمن ذلك قول المتنبِّي (354هـ):

وخُفُوقُ قَلْبٍ لو رأيتِ لهيبَه
يا جَنَّتي -لظَنَنْتِ فيه جَهَنَّما[3]

فقال ابـن أبـي الإصبـع (654هـ) «فإنَّه جاء بقوله «يا جنَّتي» لإقامة الـوزن»[4]، لكنه بعد ذلك يكتشف وظيفة أخـرى تؤدِّيها الجملة الاعتراضيَّة هي الوظيفـة الشعريَّة، وهـو ما سنتحدث عنه في (الوظيفة الشعريَّة).

ويدخل في أداء هـذه الوظيفة عبارات المحاشاة والاستثناء والعبارات التي يُعترض بها احترازًا، وهو ما يفـضي إلى تداخلٍ أحيانًا بين بنية (الاحتراس) وبنية (الاعـتراض)، والضابط هنـا أنَّ الاحتراس إذا كان جملـة معترضة بين أجزاء جملة أخرى كان اعـتراضًا، فـإن لم يعترض فهو احـتراس خالص. مثال ذلك قول النابغة الجعدي (50هـ):

ألا زَعَمَتْ بنـو كَعْبٍ بأنِّي
-ألا كَذَبُوا- كبيرُ السِّنِّ فانِ[5]

ففـي كلمـة «زعمـت» دلالتـان متنازعتـان، فالزعـم «قد يكـون حقًّا وقد يكون باطـلًا»[6]، بل «أكـثر ما يستعمـل الزعم فيمـا كان باطلًا أو فيه ارتيـاب»[7]. مـع ذلـك لم يأمن الشاعـر رجحانَ الـصدق في هـذا الزعـم لـدى المتلقِّـي، فجاءت الجملـة الاعتراضيَّـة لتوجِّـه دلالة الفعـل «زعم» وجهة وحيدة لصالـح دلالة الكذب، وذلك قبل أن يقـال الكلام المزعوم، وبدون هذا التوجيه يصعب تغيير القناعات التي ستتشكَّل لدى المتلقِّين.

وعلى الرغم من الطاقة التأثيريَّة في عبارات المحـاشاة الدعائيَّـة فإنها تـؤدِّي الوظيفـة الميتالغويَّة من حيث إنَّهـا تحـترز وتستثني من الكلام -وفي هذه الحال- التالي لا السابق. مثال ذلك قول المتنبِّي:

(1) ينظر، صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ص102.
(2) ابن الأثير: المثل السائر، ج3، ص49.
(3) المتنبِّي (أبو الطيِّب، أحمد بن الحسين): ديوان أبي الطيِّب المتنبِّي، ج1، ص46. ويروى مكان «لظننت»: لرأيت.
(4) ابن أبي الإصبع (أبو محمَّد، عبد العظيم بن عبد الواحد): تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: حفني محمَّد شرف (المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة، الجمهوريَّة العربيَّة المتَّحدة)، ص129.
(5) النابغة الجعديّ (أبو ليلى، قيس بن عبد الله): ديوان النابغة الجعديّ، ص179.
(6) العسكريّ (أبو هلال، الحسن بن عبد الله)، معجم الفروق اللغويَّة، ص185.
(7) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، ص349. مادَّة (ز.ع.م).

وتَحْتقـرُ الدنيا احتقارَ مجرِّبٍ
يَرَى كلَّ ما فيها -وحاشاكَ- فانيا[1]

فاحـترز بقوله «وحاشاك» من دخول ممدوحه في الفنـاء[2]، فجملة «حـاشاك» ليـست لها قيمة ذاتيَّـة وإنَّما قيمتهـا النصِّيَّة في أنَّهـا توجِّه دلالة كلمـة «فانيًا» بأنَّها تشمل أهل دنياه جميعًا باستثناء الممدوح فهو خارج مـن مدلولها، وذلك مبالغة في المـدح ودعاء بطول البقاء. وقد استحسن القدماء هذا الاعتراض[3]، وذهب العبَّاسيُّ (963هـ) إلى أنَّ الشعـراء جميعًا أخذوا لفظـة «حاشا» من قول أبي الطيِّب هذا[4]، وهو يقصد الأسلوب لا اللفظ.

3- الوظيفة التأثيريَّة

هي الوظيفة التي فيها «تتَّجه الرسالة إلى المرسل إليـه»[5]. وقـد رصد جاكبسون بنيتـين أساسيَّتين تؤدِّيان هذه الوظيفة هما، النداء والأمر[6]، وأضاف الدكتور المسدِّي صيغة الدعاء[7]، والدكتور صلاح فـضل، الرجاء والتمنِّي[8] وكلُّهـا يجمعها أنَّها من (الإنشاء الطلبـيّ). وقد نبَّه الدكتور صلاح فضل إلى مراعاة تدخُّل الوظائف الأخرى «ففي الرجاء مثلًا يحتـلُّ الطلب مركز الثقل، يليـه التعبير عن الانفعال من جانـب المتكلِّم، وذلك عكـس التمنِّي الـذي يحتلُّ فيه التعبير عـن عاطفة المتكلِّم مركز الثقل وإن اقترن بطلب يدرك مقدِّمُه نفسُه صعوبة أو استحالـة تنفيـذه طبقًا لملاحظـات البلاغيِّين القدماء»[9].

على المستوى الفعليّ في النص الشعريّ، وجدنا أنَّ الاعتراض بالأمر والنداء والدعاء وغيرها من الأساليـب الطلبيَّة يؤدِّي الوظيفـة الانتباهيَّة أكثر مـن أيَّة وظيفـة أخرى، وعليه فـإنَّ النصوص هي التي تحدِّد وظائف البنـى فيها، ولا ينبغي للمحلِّل النـصِّيِّ أن يركن كلِّيَّـة إلى المقولات السابقة التي تحصر وظيفةً ما في صيغ محدَّدة.

أدَّت بنيـة الاعـتراض الوظيفـة التأثيريَّة من خلال جمل الدعاء، مع كون هذه الجمل جاءت في الغالب لأداء الوظيفة الانتباهيَّة بعد أن أفرغت من معانيهـا الأصليَّة، وعليه تكـون الوظيفة التأثيريَّة وظيفـة ثانويَّة في غالـب النمـاذج الشعريَّة لبنية الاعتراض.

وقد نلمس هيمنـة الوظيفة التأثيريَّة على بنية الاعـتراض إذا كانـت صيـغ الدعاء ومـا أشبهها ممَّـا لم يكثر استعمالـه في الشعر، فإن هذا يجعل معناهـا محفوظًـا ومن ثَـمَّ أثرها. مـن ذلك قول الحُصَيْن بن الحُمَام (10ق هـ):

فقلت لهم، يا آل ذُبْيانَ ما لكم
-تفاقـدتمُ- لا تُقْـدِمونَ مُقَدَّما

فعبارة «تفاقدتم» دعاء على المخاطبين[10]، وهي ليـست من مألـوف الدعاء، ما يعنـي أنَّها تحتفظ بقيمتهـا التأثيريَّة التي يتوجَّـه فيها الخطاب إلى

(1) المتنبِّي: الديوان، ج2، ص354.
(2) ابن منقذ (أبو المظفَّر، أسامة بن مرشد)، البديع في نقد الشعر، تحقيق: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، ص130.
(3) القزوينيّ، الإيضاح، ج1، ص314.
(4) العبَّاسي (أبو الفتح، عبد الرحيم بن عبد الرحمن): معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ج1، ص372.
(5) بومزبر (الطاهر): التواصل اللسانيُّ، ص39.
(6) ينظر، جاكبسون، قضايا الشعريَّة، ص29.
(7) ينظر، المسدِّي، الأسلوبيَّة والأسلوب، ص159.
(8) ينظر، صلاح فضل، علم الأسلوب، ص155.
(9) المرجع نفسه، ص155.
(10) ينظر، المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج1، ص387.

المخاطَب في محاولة لإحداث نوع من القلق النفسيِّ والتوتُّر العاطفيِّ المحفِّز له. وقد تآزرت في البيت الأساليب الطلبيَّة لتكوِّن شحنة قويَّة موجَّهة نحو المخاطب لإثارته، والإثارة هي ميزة في الخطاب التأثيريِّ[1]، وبموجبها يكون الخطاب «عامل استفزاز يحرِّك في المتقبِّل نوازعَ وردودَ فعل»[2]. لكنَّ المرزوقيَّ يلتفت إلى أنَّ هذه الأساليب الطلبيَّة -ومن بينها جملة الاعتراض الدعائيَّة- تؤدِّي وظيفة تعبيريَّة تتمثَّل في التضجُّر؛ حيث يقول، «وهذا الكلام تضجُّرٌ منه بهم لمَّا تخاذلوا ولم يكونوا عند حسن الظنّ»[3]. وهذا يعني أنَّ الخطاب هنا مزدوج الوظيفة، فالأسلوب الطلبيُّ يتَّجه نحو الخارج (الآخر) في حين يحمِّله الشاعر متطلَّبات الداخل (الذات).

ومن الأمثلة المشهورة في هذا الباب قول عَوْف بن مُحَلِّم الخُزَاعيّ (220هـ) للأمير عبد الله بن طاهر بن الحسين (230هـ)،

إنَّ الثمانينَ -وبُلِّغْتَها-

قد أَحْوَجَتْ سمعي إلى تَرْجُمانْ

جملة الاعتراض «وبلِّغتها» هي جملة دُعائيَّة، وهي عند المرزوقيِّ «دعاء خير»[4] للمخاطب تبعث في نفسه الراحة والتفاؤل، فهي بذلك تؤدِّي الوظيفة التأثيريَّة؛ لكنَّ نظرةً متفحِّصة تكشف عن مزاحمة الوظيفة الانتباهيَّة للوظيفة التأثيريَّة؛ فالاعتراض هنا جاء لتنبيه المخاطب على ما في طول العمر من مساوئ. ويمكن القول إنَّ مجيء الجملة الاعتراضيَّة في وسط البيت مكَّنها من نسج علاقات مع ما تقدَّمها «إنَّ الثمانين» وما تأخَّر عنها «قد أحوجت سمعي إلى ترجمان»، فكانت علاقتها بالمتقدِّم علاقة دعاء بالخير كما ذهب المرزوقيُّ، فهي هنا تؤدِّي الوظيفة التأثيريَّة؛ وكانت علاقتها بالمتأخِّر علاقة تنبيه، فهي هنا تؤدِّي الوظيفة الانتباهيَّة. وقد كان الشاعر من الذكاء بحيث دعا له بالعمر الطويل قبل أن يبيِّن ما يعتور صاحب الثمانين من الأدواء، حتى لا يبدو أنَّه يدعو للأمير بأن يصير إلى هذا المصير.

وكانت العبارة الدُّعائيَّة «لا أبا لك» مثار حيرة النقَّاد والبلاغيِّين واللغويِّين القدماء، فكانوا ينصُّون على عدم فائدتها إذا جاءت في مقام ليس فيه الدعاء دعاءَ شرٍّ لأنَّ الأصل لديهم أنَّها دعاء شرٍّ، ولذلك كلَّما وجدوها في مقام دعاء الشرِّ عدُّوها على الأصل فاستحسنوها؛ كما في قول جرير (110هـ):

أَعَبْدًا حَلَّ في شُعَبَى غريبًا

ألؤمًا – لا أبا لك – واغترابا[5]

وإذا وجدوها في غير ذلك لم يستحسنوها[6]. وقد حاول بعضهم أن يحمِّلها المدلولين المتناقضين (المدح والذم) خروجًا من هذه الحيرة، فقال، «وهذا يكون للمدح بأن يُراد نفي نظير الممدوح بنفي أبيه، ويكون للذم بأن يُراد أنه مجهول النسب»[7].

وفي نظرنا أنَّ القدماء لم ينتبهوا إلى أنَّ هذه

(1) ينظر، بومزبر: التواصل اللساني والشعريَّة، ص39.
(2) المسدِّي، الأسلوبيَّة والأسلوب، ص82.
(3) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج1، ص386.
(4) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج1، ص387.
(5) جرير بن عطيَّة، ديوان جرير (بشرح محمَّد بن حبيب)، ص650.
(6) ينظر، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج9، ص32.
(7) البغداديّ (عبد القادر بن عمر)، ج2، ص184.

العبـارة قد فقـدت معناهـا الأوَّل وأصبحت ذات قيمـة تنبيهيَّـة يقصد بهـا لفت الانتبـاه، حتى في الأمثلـة التـي ظنُّوا أنَّهـا جاءت علـى الأصل. وإن كان السيوطـيُّ (911هـ) قد أشار إلى شيء قريب مـن هـذا عندما تحـدَّث عـن أنَّ كـثرة استعمال هـذه العبـارة أفقدتهـا معناهـا الأصلـيَّ وهو أن ينـسب المخاطب إلى أب معلوم شتمًا له واحتقارًا، ثـمَّ صارت «تقـال في كلِّ خطـاب يغلـظ فيه على المخاطب»[1]، بمعنـى أنها صارت عبارة مصكوكة فاقـدة لمعناها الأصلـيِّ محتفظةً بقـوَّة التأثير في المخاطـب، لا بمفهـوم التأثير الذي يغـيِّر قناعات المخاطـب، ولكن بمفهوم قدرتها على لفت انتباهه نحـو عنـاصر الخطـاب الأساسيَّـة التـي تُحْدِث التأثيرَ الحقيقيّ.

هذا، وقد شاع أن الوظيفة التأثيريَّة تتحقَّق في العنـاصر اللغويَّة المتَّجهة نحـو المخاطَب كضمائر الخطـاب والأساليـب الطلبيَّـة، وهذا أمـر يصحُّ في مـواضع ولكنَّه يكون خادعًـا في مواضع أخرى. وقـد وجدنا جملًا اعتراضيَّة مـن هذا النوع، لكنَّ الوظيفـة المهيمنة فيها غير الوظيفة التأثيريَّة، قد تكون الانتباهيَّة أو الميتالغويَّـة أو كليهما؛ ونضرب مثـالًا لذلـك قـول عنـترة العبـسيِّ (22ق هـ) في معلَّقته:

ولقد نَزَلْتِ -فلا تَظُنِّي غَيْرَهُ-
مِنِّي بمَـنْزِلَةِ المُحَـبِّ المُكْرَمِ[2]

فقـد جـاءت الجملـة الاعتراضيَّـة لتـؤدِّي الوظيفتـين الانتباهيَّـة والميتالغويَّـة؛ لأنَّ مهمَّتهـا دفعُ الظنِّ عـن مدلول الكلام المحيط بها والتنبيه إلى أهمِّيتـه. وقـد التفـت الـزوزنيُّ إلى الوظيفة الميتالغويَّـة لبنية الاعتراض وهو يشرح هذا البيت حيـث يقول، «يقول، وقد نزلْتِ من قلبي منزلةَ مَنْ يُحَبُّ ويُكْرَم؛ فتيقَّني هذا واعلميه قطعًا ولا تظنِّي غيره»[3]، فقـد جعل الجملـة الاعتراضيَّة موجَّهة نحـو الكلام نفسه المتمثِّـل في اسم الإشارة «هذا» والضمـير الهـاء في «اعلميه» و«غـيره». ومع هذا فإننـا لا نعدم حـضور الوظيفـة التأثيريَّة حضورًا ثانويًّا، من خلال (ياء المخاطبة) وأسلوب النهي.

4- الوظيفة التعبيريَّة

الوظيفـة التعبيريَّـة «هـي التـي تركِّـز علـى المتكلِّم، وتنحو إلى التعبير المباشر عن موقفه ممَّا يقول»[4]. وقد ذكـر جاكبسون من الأدوات اللغويَّة التي تؤدِّي هذه الوظيفة، صيغ التعجُّب[5]، وأضاف إليهـا الدكتـور المـسدِّي، التـأوُّه ودعـوات الثَّلْـب وصيحـات الاستنفار[6]، ثـم أضاف إليها الطاهر بومزبـر، الاستغاثة والندبة[7]. وفي نظرنا أن ذكر هـذه الأدوات جاء لتقريب مفهوم هـذه الوظيفة، فهي غـير منحـصرة بها، كمـا أن هـذه الأدوات المذكـورة نفسها قد تؤدِّي -في بعـض النصوص- وظائف أُخَـر، فدعوات الثلب وصيحات الاستنفار والاستغاثـة شديـدة الصلـة بالوظيفـة التأثيريَّة

(1) البغداديّ، خزانة الأدب، ج2، ص184.
(2) الزوزنيّ: شرح المعلَّقات السبع، ص109.
(3) المرجع نفسه، ص109.
(4) صلاح فضل، علم الأسلوب، ص155.
(5) ينظر، جاكبسون، قضايا الشعريَّة، ص28.
(6) ينظر، المسدِّي: الأسلوبيَّة والأسلوب، ص158.
(7) ينظر: بومزبر، التواصل اللسانيّ والشعريَّة، ص36.

التـي تنزع نحو المرسل إليه، وقد تؤدِّي في نصوص أخرى الوظيفة الانتباهيَّة.

وهنـا ينبغـي التنبيـه إلى أنَّ إحساسنـا بهذه الوظيفة عنـد تناول الشعر القـديم منخفض إلى حدٍّ كبير قياسًا إلى الإحساس بها عند قول الشعر أوَّل مـرَّة، فالفرق بين الخطـاب المرسَل عبر قناة فيزيائيَّة (نطقيَّة) والمـرسَل عبر الصور الخطيَّة (كتابة) يكون بارزًا وقويًّا «حيث تقوى الارتسامات الانفعاليَّة على المقدَّم نطقًا، فيما تتضاءل وتضعف عندما يتحوَّل إلى بنية مكتوبة»[1]. وهذا أمر ينبغي للناقد الحديث أن يأخذه في الحسبان عند مقاربة النصّ الشعريِّ القديم.

وباستقرائنـا لأشهـر شواهـد الاعـتراض في الشعـر العربيِّ القديم وجدنـا أنَّ بنية الاعتراض أدَّت الوظيفـة التعبيريَّة من خـلال حضور الذات المتكلِّمـة بآمالها وآلامها، هذه الـذات التي تجلَّت نصِّيًّـا في ضمائر المتكلِّم وأساليـب الإنشاء غير الطلبيَّـة، والطلبيَّـة أحيانًـا، وتعبـيرات أُخَر. من ذلك قول نُصَيْب بن رَبَاح (108هـ)،

فَكِدْتُ -ولم أُخْلَقْ من الطَّيْرِ- إنْ بَدَا

سَنَا بارِقٍ، نَحْـوَ الحِجَـازِ أَطِيرُ[2]

واضح أنَّ الجملـة الاعتراضيَّـة «ولم أخلق من الطير» جاءت لتؤدِّي الوظيفة الميتالغويَّة من خلال توجيه دلالـة الفعل «أطير» بأنَّـه فعل غير متحقِّق ولـن يتحقَّـق، فجيء بالاعـتراض للاحـتراز من إنكار إسناد الطيران إلى المتكلِّم مع كونه ليس من جنس الطير. لكن ابن القيِّم (751هـ) التفت عن الوظيفـة الميتالغويَّـة إلى الوظيفـة التعبيريَّة التي تؤدِّيها الجملـة الاعتراضيَّة، فوجد أنَّ الاعتراض في هذا البيت يفيد «قـوَّة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز، فأخبر أنَّه كاد يطير، على أنَّه أبعد شيء من الطيران، فإنَّـه لم يُخلق من الطير، ولا عجب طيران مَنْ خُلق مـن الطير، وإنَّما العجب طيران مـن لم يُخلـق من الطـير؛ لـشدَّة نزوعـه وشوقه إلى جهـة محبوبـه»[3]. وهـو بقولـه هـذا يرجِّـح هيمنـة الوظيفـة التعبيريَّة في بنيـة الاعتراض في هذا البيت.

واستنـادًا إلى ما رُوي من أخبـار تتَّصل بتلقِّي هـذا البيت في زمـن الشاعـر؛ نجـد أنَّ الوظيفة التأثيريَّة كانت حاضرة أيضًا في الاعتراض خاصَّة والبيـت عامَّة، فقـد روي «أنَّ التي قيـل فيها هذا البيـت لمَّا سمعتْـه تنفَّستْ تنفُّسًا شديـدًا»[4]. وقد استملح عبد الرحيم العبَّاسيُّ هذا الاعتراض، في حين أنَّ ابن أبي عتيـق (110هـ) المعاصر للشاعر فـضَّل ردَّ الفعـل (التنفُّـس الشديد) علـى الفعل نفـسه (الشعر)، وذلك في قولـه لتلك المرأة، «قد -واللّه- أجابتْه بأحـسنَ من شعره!». ومن فضول القـول وظريفـه أنَّ ابـن أبـي عتيـق قـد استعمل الاعتراض في كلامه، فربَّما تأثَّر بقول نُصَيْب من حيث لا يدري!

إنَّ الفـصل طويـلَ الأمـد بين الفعـل الناقص واسمه «كـدت» في مطلع البيـت، وخبرِه في مقطع البيت «أطير»، وهو ما نلمسه في البنية السطحيَّة؛

(1) بومزبر: التواصل اللسانيّ والشعريَّة، ص37.
(2) نُصَيْب بن رَبَاح، شعر نصيب بن رباح، ص91.
(3) ابن القيِّم (أبو عبد الله، محمَّد بن أبي بكر، ص223.
(4) العبَّاسي، معاهد التنصيص، ج1، ص371.

يكشف عن البون الشاسع بين الخيال والواقع، بين الرغبة والتنفيذ، بين الذات والفعل، في مستوى البنية العميقة. وقد جنَّد النصُّ كلَّ إمكانات الفصل بين اللفظين، فكان الاعتراض أحد هذه الإمكانات، فضلًا عن تقديم جملة الشرط «إن بدا سنا بارق» التي كان حقُّها أن تتأخَّر بعد باقي الكلام، وكذا تقديم شبه الجملة «نحو الحجاز» على الفعل «أطير».

ومن الأمثلة أيضًا قول العبَّاس بن الأحنف (194هـ):

إنْ تَمَّ ذا الهَجْرُ يا ظَلُومُ -ولا
تَمَّ- فما لي في العَيْشِ من أَرَبِ[1]

تفضح العبارة الدعائيَّة في بنية الاعتراض «ولا تمَّ» قلق الذات من الانفصال عن المحبوب، فالوظيفة التعبيريَّة فيها بارزة، من حيث إنَّ الغرض من هذا الاعتراض «المسارعة إلى دعاء الله بألا يقدِّر وقوع هذا الهجر والتقاطع»[2]. وكان مجيء بنية الاعتراض في قلب البيت منبئًا عن أهمِّيتها ومحوريَّتها في الكلام، كما أن انفصال أجزاء هذه البنية بين نهاية الصدر وبداية العجز جاء تعبيرًا نصِّيًّا عن الهجر.

ومن الأمثلة التي تحقَّقت فيها الوظيفة التعبيريَّة في أسلوب إنشائيٍّ طلبيٍّ قول أبي الفتح البُسْتي (400هـ):

أراحَ اللهُ قَلْبي من زمانٍ مَحَتْ يَدُه سروري بالإساءة

فإنْ حَمِدَ الكريمُ صباحَ يومٍ -وأنَّى ذاك- لم يَحْمَدْ مَسَاءه[3].

فالجملة الاعتراضيَّة أدَّت الوظيفة التعبيريَّة على الرغم من كونها إنشاء طلبيًّا يتَّجه في الأصل إلى المتلقِّي، لكن الاستفهام هنا خرج من معناه المعتاد إلى إظهار يأس الذات من استقرار حال الزمان على نسق واحد، تمامًا كالجملة الحاملة لهذا المضمون التي بدت غير قادرة على الاستقرار على نسق واحد، فأُقحمت في ثناياها الجملة الاعتراضيَّة.

ومن الأمثلة التي أدَّت فيها الجملة الاعتراضيَّة الوظيفة التعبيريَّة، قول ابنة ضِرَار الضَّبِّيَّة ترثي أخاها قَبِيصة بن ضرار، من عصر ما قبل الإسلام:

لا تَبْعَدَنَّ -وكلُّ شيءٍ ذاهِبٌ-
زَيْنَ المَجَالِسِ والنَّدَى، قَبِيصا[4]

جاءت الجملة الاعتراضيَّة في صورة جملة اسميَّة خبريَّة ذات طابع عامّ ما يجعلها مصوغة لتكون حكمة باقية، وهذا النوع من الجمل يؤدِّي وظيفة مرجعيَّة بسبب محمولها الدلاليِّ والثقافيِّ، وهو أمر سنرجع فيه القول بالتفصيل في (الوظيفة المرجعيَّة). لكن على الرغم من هذا المحمول سنجد أنها -في هذا البيت- تؤدِّي وظيفة تعبيريَّة في المقام الأوَّل هو إظهار التسلِّي في سياق الحزن

(1) العبَّاس بن الأحنف، ديوان العبَّاس بن الأحنف، ص33. ومكان «تمّ» في الديوان في الموضعين: دام، وقد اخترنا «تم» لأنَّ أكثر كتب النقد والبلاغة أثبتتها هكذا.

(2) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص195.

(3) البُسْتيّ (أبو الفتح، علي بن محمَّد)، ديوان أبي الفتح البستي، ص221.

(4) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج2، ص1053.

الشديد على فراق أخيها، ولم تكن هذه الجملة الخبريَّة قادرة على الاحتفاظ بخبريَّتها في هذا الوسط المزدحم بالإنشاء، فيكون البيت كلُّه إنشاءً معبِّرًا عن الانفعال الشديد والعاطفة المحتدمة.

5- الوظيفة المرجعيَّة

هي الوظيفة التي «تحدِّد العلاقات بين المرسَلة والشيء أو الغرض الذي ترجع إليه»[1]، وتتجلَّى نصِّيًّا في ضمير الغائب[2]، وفي الجملة الخبريَّة التي «تحيل إلى واقع مرجعيٍّ خارج – لسانيّ»[3].

إنَّ هيمنة الوظيفة الانتباهيَّة على بنية الاعتراض، جعل جملة الاعتراض تُفرغ من محمولها الدلاليِّ وتُصرم حبالُ الإحالة فيها، وهو ما قلَّل فرص حضور الوظيفة المرجعيَّة في هذه البنية، لكنَّ حضورها الثانويَّ إلى جانب الوظيفة الانتباهيَّة كان محصورًا في شكل محدَّد من أشكال الجملة الاعتراضيَّة، وهو شكل الجملة الخبريَّة ذات الطابع الحِكميِّ العامّ.

إنَّ التعبير الحِكميَّ مثقل بالإحالات؛ لأنَّه خلاصة تجربة إنسانيَّة طويلة، ويحيل إلى سياق نموذجيٍّ من حيث إنَّ السياق هو «الرصيد الحضاريُّ للقول وهو مادَّة تغذيته بوقود حياته وبقائه»[4]. وفي هذا التعبير اللغويِّ المكثَّف تستعمل العلامات «بوصفها نائبة عن أشياء نتحدَّث عنها بدل استحضارها داخل السياق الخطابيّ»[5].

(1) فاطمة الطبّال بركة، النظريَّة الألسنيَّة عند رومان جاكبسون، ص67.
(2) ينظر، جاكبسون، قضايا الشعريَّة، ص30.
(3) المرابط (عبد الواحد)، السيمياء العامَّة وسيمياء الأدب، ص47.
(4) الغذَّامي (عبد الله)، الخطيئة والتكفير –من البنيويَّة إلى التشريحيَّة ص10.
(5) بو مزبر، التواصل اللسانيُّ والشعريَّة، ص45.

هناك أربع ملاحظات أساسيَّة على هذا الشكل الخاص من بنية الاعتراض، ألفيناها في معظم نماذجها في الشعر العربيِّ القديم،

1- **الملاحظة الأولى**، أنَّ غالب نماذجها جاء في آخر الصدر، وللتأكُّد من هذه النتيجة قمت بالبحث في قرص (الموسوعة الشعريَّة)[6] المدمج عن عبارة من هذا النوع هي «والحوادث جمَّة» فوجدت أنَّها تكرَّرت أربعًا وثلاثين مرَّة في شعر ستَّة وعشرين شاعرًا من مختلف العصور، كلُّها من دون استثناء وردت فيها هذه العبارة في آخر الصدر، وكأنَّ استعمالها صار تقليدًا فنِّيًّا الخروجُ عنه أمر مَعيب، وهذا الأمر يشمل استعمال هذه العبارة في بنية الاعتراض وخارجها. وكأنَّ قول امرئ القيس (80ق هـ) هو الاستعمال الأوَّل لهذه العبارة، فسار على نهجه باقي الشعراء، وذلك دأب شعره لا يفتأ أن يكون مثالًا يُحتذى،

ألا هل أتاها –والحوادثُ جَمَّةٌ–

بأنَّ امْرَأَ القَيْسِ بْنَ تَمْلِكَ بَيْقَرَا[7]

والظاهر أنَّ هذا كان من أجل أن يستقلَّ العَجُزُ بالمعنى الأساسيِّ الذي يقصد إليه الشاعر وتنبِّه إليه الجملة الاعتراضيَّة.

2- **الملاحظة الثانية**، أنَّ أكثر نماذجها جاء في صورة جملة اسميَّة، وقد ناسب هذا سياقَ الحكمةِ لأنَّ الاسم أدلُّ على الثبات والعموم

(6) المجمَّع الثقافيّ، الموسوعة الشعريَّة (قرص مدمج) (المجمَّع الثقافيّ، أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003م).
(7) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، ص392. تملك: اسم أمّه. بيقر: لم يدر أين يسلك.

لتجرُّده من الزمن، وهو ما تحتاج إليه الحكمة لتبقى وتنتشر. وقد كان المبتدأ في هذه الجملة دالًا على العموم من خلال وسيلتين، تعريف المبتدأ بأل الاستغراقيَّة، وتنكيره. فمثال الأوَّل بيت امرئ القيس الماضي، ومثال الثاني قول البحتريِّ (284هـ)،

ولقد علمتُ -وللمحبِّ جهالةٌ-

أنَّ الصِّبا بعد المَشيب تَصَابي[1]

3- **الملاحظة الثالثة**، أنَّ جلَّ الجمل الاعتراضيَّة الحِكميَّة يتكوَّن من لفظين أو ثلاثة. والظاهر أنَّ ذلك يعود إلى الحرص على أن تظلَّ الجملة الاعتراضيَّة في حيِّز الصدر لِمَا ذكرنا من حرص آخر على أن ينفرد العجز بالمعنى الأساسيِّ في البيت. ولكونها معترضةً في الصدر كان لا بدَّ من وجود ألفاظ أخرى تزاحمها فيه، فكان هذا داعيًا آخر إلى إيجازها، فضلًا عن أنَّ سياق الحكمة نفسَه يقتضي الإيجاز. هذا إن كانت الحكمة من إنشاء الشاعر، فإن كان يوظِّفها فهي موجزة في أصل بنائها ليسهل حفظُها وسيرورتُها. فمن أمثلة البنية الثنائيَّة قولُ امرئ القيس وقول البحتريِّ الماضيان، ومن أمثلة البنية الثلاثيَّة قول جرير:

ولقد أراني – والجديدُ إلى بِلًى –

في موكبٍ طُرُفِ الحديثِ كِرَامِ[2]

4- **الملاحظة الرابعة**، أنَّ معظمها جاء تاليًا لضمير المتكلِّم البارز والمستتر، فأدَّت هذه الجملُ وظيفةً تعبيريَّة واضحة إلى جانب الوظيفة المرجعيَّة، تفضح عواطف الذات وانفعالاتها، وقد رأى ابنُ الأثير في بيت جرير السابق نوعًا من التعزِّي يسلِّي به الشاعر نفسه عمَّا مضى من اللذة والنعيم الذي فاز به من عشْرة أولئك الأحباب. ومن أمثلة ذلك قول أبي تمَّام (231هـ):

وما أُبَالي – وخيرُ القولِ أَصْدَقُه –

حَقَنْتَ لي ماءَ وَجْهي أم حَقَنْتَ دَمِي[3]

فالجملة الاعتراضيَّة هنا تؤدِّي إلى جانب الوظيفتين الانتباهيَّة والمرجعيَّة وظيفتين أخريين بارزتين، هماالوظيفة التعبيريَّة والوظيفة الميتالغويَّة، فهي تفضح القلق النفسيَّ لدى الذات المتكلِّمة في عبارة «وما أبالي»، ويدفع عنها تهمة الكذب. ولذلك قال ابن أبي الحديد تعليقًا على هذا الاعتراض: «وفائدته إثبات صدقه في دعواه أنَّه لا يبالي أيَّهما حقن»[4].

إنَّ الجمل الاعتراضيَّة السابقة تحيلنا إلى أشياء وأحداث خارج النصِّ، فتؤدِّي بذلك الوظيفةَ المرجعيَّة. ولنا أن نأخذ مثالًا على ذلك عبارةَ «والحوادث جمَّة»، فهي تحيلنا إلى سلسلة من الحوادث التي صادفها امرؤ القيس في حياته، وهي تعيدنا إلى السياق التاريخي وسيرة الشاعر، وقد جُمعت في عبارة شديدة الإيجاز حاولت التفلُّت من أسر

(1) البحتريّ (أبو عبادة، الوليد بن عبيد): ديوان البحتريّ، ج1، ص295. ويروى في بعض المصادر:
ولقد علمت – وللشباب جهالة – أنَّ الصبا بعد الشباب تصابي
(2) جرير: الديوان، ج3، ص991.
(3) التبريزيّ (أبو زكريَّا، يحيى بن علي)، ج2، ص108.
(4) ينظر، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج9، ص31.

اللحظة الزمنيَّة والحدود المكانيَّة للشاعر، لتنطبق على كل قائل ومتلقٍّ، فكلٌّ واحد منَّا يعيش أحداثًا كثيرة لا يمكن حصرها، ومن هنا تكتسب العبارة طابعها الحكميَّ، وذلك التفلُّت يكاد يفرغها من مضمونها ويصرم حبال الاتِّصال بالواقع الذي أنتجها، ومن هنا تتحوَّل إلى أداء وظيفة التنبيه إلى الكلام التالي لها. فكأنَّ امرأ القيس يقول، فلتدع كلَّ الحوادث ولتنتبه للحادثة الآتية، أنِّي شريد في الأرض أهاجر من أرض إلى أخرى طلبًا للأخذ بثأر أبي، وهذا أجلُّ حدث تصغر عنده باقي الأحداث.

6- الوظيفة الشعريَّة

هي الوظيفة التي يتمُّ فيها «استهداف الرسالة بوصفها رسالة، والتركيز على الرسالة لحسابها الخاصِّ»[1]، من خلال إسقاط «خطة التماثل لمحور الاختيار على محور التوزيع»[2]، وهو ما يتجلَّى في منهج التوازي الذي يتضمَّن مجموعة من الأدوات الشعريَّة التكراريَّة مثل «الجناس، والقافية، والترصيع، والسجع، والتطريز، والتقسيم، والمقابلة، والتقطيع، والتصريع، وعدد المقاطع أو التفاعيل والنبر، والتنغيم، ويمكن لبنية التوازي هذه أن تستوعب الصور الشعريَّة بما فيها من تشبيهات واستعارات ورموز، ويمكن للتوازي أن يتخطَّى حدود البيت أو المقطوعة لكي يستوعب القصيدة بأتمِّها»[3].

وبدراستنا نماذج للاعتراض في الشعر العربيِّ القديم وجدنا أنَّ الوظيفة الشعريَّة لم تتحقَّق داخل بنية الاعتراض، وإنما تحقَّقت في توازي بنية الاعتراض مع أجزاء أخرى من النصِّ الشعريِّ، وفي هذا الإطار وجدنا شكلين للتوازي،

الأوَّل، توازٍ بين جملتين اعتراضيَّتين؛ (ثنائيُّ الاعتراض).

الثاني، توازٍ بين عنصر في الجملة الاعتراضيَّة وآخر خارجها؛ (أحاديُّ الاعتراض).

فأمَّا الشكل الأوَّل فيتحقَّق أفقيًّا ورأسيًّا، فمن تحقُّقه أفقيًّا قول الشاعر الجاهليِّ ضَمْرة بن ضَمْرة النَّهْشَلي:

هذا -وجَدِّكُمُ- الصَّغَارُ بعينيه
لا أُمَّ لي -إنْ كان ذاكَ- ولا أبُ[4]

وواضح أنَّ الاعتراض الثاني «إن كان ذاك» جيء به لموازاة الاعتراض الأوَّل «وجدِّكم» إذ ليس الثاني اعتراضًا أصيلًا بحيث يمكن الاستغناء عنه كالاعتراض الأوَّل، وإنما هو اعتراض ناشئ من التقديم والتأخير، وإنما اعترض به حرصًا على التوازي في بنية البيت عمومًا.

ومن التحقُّق الأفقيِّ أيضًا قول إبراهيم بن المهدي (224هـ) في رثاء ولده،

وإنِّي -وإنْ قُدِّمتَ قَبْلي- لعالمٌ
بأنِّي -وإنْ أُخِّرْتُ- منك قريبُ[5]

(1) جاكبسون، قضايا الشعريَّة، ص31.
(2) المرجع نفسه، ص33.
(3) المرجع نفسه، ص8.

(4) شلاش (هاشم طه)، ضمرة بن ضمرة النهشلي أخباره وما بقي من شعره، ص113.
(5) الصولي (أبو بكر، محمَّد بن يحيى): كتاب الأوراق - قسم أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، ص45.

واضح هـذا التـوازي بين مفـردات الشطرتين (وإنِّي// بـأنِّي – وإنْ// وإنْ – قُدِّمت// أخِّرت – قبلي// منك – لعالم// قريب). وقد أسهمت بنية الاعتراض في التوازي داخليًّا من خلال توازي التضادِّ بين «قدِّمت» و«أخِّرت»، وخارجيًّا بتموقعها بـين اسم إنَّ وخبرها في كلٍّ مـن الصدر والعجز. ومن فضول القول أنَّ تـوازي التضادِّ بين «قُدِّمْتَ» و«أُخِّـرت» هـو الـذي يحـول دون تصحيـف كلمة «قُدِّمْـتَ» إلى «قَدْ متَّ»، وهي بمـكان من الاشتباه يؤهِّلها لأن تكون مظنَّة التصحيف.

وقـد يتحقَّق الـشكل الأوَّل رأسيًّـا؛ كما في قول أبي خِرَاش الهُذَلِيّ (15هـ)، يذكر أخاه عروة،

تَقُـولُ، أَرَاهُ بَعْـدَ عُـرْوَةَ لاهِـيًا
وذلك رُزْءٌ -لـو عَلِمْـتِ- جلـيلُ
فلا تَحْسَبِي أنِّـي تَنَاسَيْتُ عَهْدَهُ
ولكنَّ صَبْري -يا أُمَيْمَ- جميلُ[1]

كان الحـرص على تـوازي العَجُزَيْـن واضحًا، بحيث كانـت كلُّ كلمة في العجز الثـاني إزاء كلمة في العجز الأوَّل (وذلك// ولكن – رزء// صبري – لو علمت// يا أميم – جليل// جميل). وقد دخلت بنية الاعتراض في إطار بنية التوازي، بمعنى أنَّ الاعـتراض الثاني جيء به لإحداث التوازي مع الاعتراض الأوَّل من جهة، ولإحداث التوازي العامِّ بين الشطرتين من الجهة الأخرى.

وأمـا الشكل الثـاني فقد يتحقَّق بـين كلمة في الجملـة الاعتراضيَّة وكلمـة سابقـة عليها، وهذا نوع؛ أو تاليـةٍ لها، وهذا نوع آخر. فمن النوع الأوَّل قول كثيِّر،

وَدِدْتُ – ومـا تُغْني الوَدَادةُ – أنَّني
بمـا في ضَمِـير الحاجبيَّة عـالِمُ[2]

فالتوازي هنـا قائم بين الفعل «وددت» في مطلع البيت، والمصدر «الودادة» في حشو الصدر، والتوازي بينهما قائم سطحًا في التجنيس الاشتقاقيِّ، ثمَّ إنَّ هنـاك توازيَ تـضادٍّ في مستوى العمـق بين حضور الفعالية في «وددت» وغيابها في «الودادة».

ومن النـوع الثاني التـوازي الإيقاعـيُّ في قول معن بن أوس (64هـ):

لَعَمْـرُك مـا أَدْري -وإنِّي لأَوْجَـلُ-
علـى أيِّنـا تعـدو المنيَّـةُ أوَّلُ

فكان التوازي بين كلمة في الجملة الاعتراضيَّة هي «أوجل» وكلمة تالية لها هي كلمة المقطع «أوَّل»، وقد جـاءت كلمـة «أوجـل» في موقـع (العروض) لتكـون في موازاة كلمـة (الـضرب) «أوَّل»، وذلك لتحقيـق أكبر قـدر من التـوازي الإيقاعـيِّ الذي يضمـن إحداث الأثر لدى المتلقِّين. وهذه الظاهرة هي التـي تعـرف بالتصريع، وهو جعـل العروض مقفـاة تقفية الضرب؛ بمعنـى أنَّ بنية الاعتراض جيء بها لتحقيق هذه الغاية الشعريَّة المحض.

وقد يكون التوازي مـن هذا النوع توازيَ تضادٍّ كما في قول المتنبِّي،

وخُفُـوقُ قَلْـبٍ لـو رأيـتِ لهيبَـه
-يـا جَنَّتي- لظَنَنْتِ فيـه جَهَنَّما[3]

(1) مجموعة من الشعراء الهذليِّين، ديوان الهذليِّين، ج2، ص116. وأميمة هي امرأة أخيه.

(2) كثيِّر عزَّة: الديوان، ص245.

(3) المتنبِّي، الديوان، ج1، ص46. ويروى مكان «لظننت»: لرأيت.

وقد التفت ابن أبي الإصبع إلى ما في الاعتراض من توازٍ يؤدِّي الوظيفة الشعريَّة، وذلك من خلال اختيار «جنَّتي» دون سواها ممَّا يسدُّ مسدَّها، فإنَّ اختيارها جاء لتكون في حال توازٍ (تضادِّيٍّ) مع كلمة المقطع «جهنَّم»[1]، فضلًا عن التجانس الاستهلاليِّ بين الكلمتين.

ومن الملاحظ على بنية التوازي في شكليها (ثنائيِّ الاعتراض) و(أحاديِّ الاعتراض) أنها كانت تظهر في نسق شعريٍّ يحيل إلى سياق عاطفيٍّ ملتهب شوقًا وحزنًا ووجلًا، وهو ما يجعل الاعتراض قريبًا من الالتفات في تشكُّله وفي أثره، ما جعل بعض النقَّاد القدماء يخلط بينهما[2]، والالتفات -عند السكاكي (626هـ)- ناتج من صدمة عنيفة يتعرَّض لها الشاعر خاصَّة والإنسان عامَّة «إذا دهمه ما تحار له العقول، وتطير له الألباب، وتدهش معه الفطن»[3].

نتائج البحث

- تقع الجملة الاعتراضيَّة -من حيث هي فضلةٌ- في مجال حرِّية المتكلِّم، ومن الناحية العمليَّة كان الاعتراض من الوسائل التي كسر بها الشعراء حدَّة القوانين اللغويَّة والنقديَّة، فتمرَّدوا على أمرين، الأوَّل بعض قوانين اللغة التي تفرض نوعًا من التراتب والالتصاق بين العناصر اللغويَّة، والثاني بعض القواعد النقديَّة التي رسَّخت لمنهج استقلال البيت بوحدته التركيبيَّة والدلاليَّة وتجلَّى هذا التمرُّد في ظاهرة التعلُّق.

- كانت الوظيفة المهيمنة في بنية الاعتراض في الشعر العربيِّ القديم، هي الوظيفة الانتباهيَّة، تليها الوظيفة الميتالغويَّة، ثمَّ الوظيفة التأثيريَّة، ثمَّ التعبيريَّة، ثمَّ المرجعيَّة، ثمَّ الشعريَّة.

- تتجلَّى الوظيفة الانتباهيَّة في بنية الاعتراض في ظاهرتين أساسيَّتين هما، التمديد والتأكيد، تمديد الاتِّصال بإطالة الكلام، وتأكيد الاتِّصال بلفت الانتباه إلى عناصر معيَّنة في الكلام.

- تؤدِّي بنية الاعتراض الوظيفة الانتباهيَّة بالقوَّة والفعل، فبالقوَّة من خلال خرق نمط التركيب بإقحام بنية في أثناء بنية أخرى، وهو ما يفضي إلى التفات المتلقِّي من كلام إلى كلام، ولذلك وقع التداخل في الاصطلاح عند القدماء بين الالتفات والاعتراض. وأمَّا بالفعل فمن خلال التعبيرات الماثلة في بنية الاعتراض.

- كثير من أمثلة الاعتراض كانت مفرغة من الإحالة إلى معنى أو مرجع، فكثرت فيها أساليب الإنشاء والعبارات الطقوسيَّة، وفروغها من الإحالة أخلصها لأداء الوظيفة الانتباهيَّة.

- نظرة الناقد الحديث إلى كثير من الجمل الاعتراضيَّة في النصِّ القديم بأنَّها جاءت لأداء الوظيفة الانتباهيَّة، لا لأداء معنى جديد أو إضافة معنى؛ يلغي بعض الأحكام التي أطلقها الناقد القديم على بعض أنواع الاعتراض وُصفت بأنَّها أتت في الكلام لغير فائدة وأنَّها غير مستحسنة.

- تؤدِّي بنية الاعتراض الوظيفة الميتالغويَّة من خلال العبارات التي تفسِّر أو توجِّه دلالة كلمة أو تعبير سابق. وتستهدف بنية الاعتراض -في

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص129.
(2) ينظر، أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيَّة، ج1، ص243.
(3) السكاكيّ (أبو يعقوب، يوسف بن محمَّد): مفتاح العلوم، ص303.

هـذه الحال- الكلام نفـسه، فلا تعبِّر عن شيء أو حـدث أو معنـى، وإنَّما تبـيِّن كلمـة أو تعبيرًا سابقًـا، وذلـك في سبيـل فـكِّ الشفـرة وتأمين عمليـة الفهم للـكلام المقول، عندمـا تكون تلك الشفرة غامضة أو ملتبـسة أو عامَّة. ويدخل في هذا عبارات المحاشاة والاحتراز.

- كشفـت الجملـة الاعتراضيَّة عن وعـي الشاعر القـديم بابتذال بعض التعبـيرات لدى الشعراء السابقين عليه والمعاصريـن له، وهو أمر ينبغي الالتفـات إليـه في التعامل النقـديِّ الحديث مع الشعر القـديم، من حيث إنَّ هـذه الظاهرة قد بـدأت منذ عـصر ما قبـل الإسلام. وقد قامت الجملة الاعتراضيَّة بأداء وظيفة الميتالغة لكشف هذا الابتذال وإعادة إحياء وهج المعنى الأوَّل.

- كانـت الجملة الاعتراضيَّـة تؤدِّي وظيفـة ميتالغويَّة عندما جـيء بها لإقامة الوزن، فهـي مفرغة من أي محمـول دلاليٍّ وتتمحَّض لقيمتهـا الإيقاعيَّة؛ مؤدِّية بذلـك وظيفـة السَّنن الشعـريِّ، من جهـة أنَّ الشعر يوظِّف النظم الإيقاعيَّة بوصفها شفرات خاصَّة به.

- أدَّت بنية الاعتراض الوظيفة التأثيريَّة من خلال جمل الدعاء، مع كون هذه الجمل جاءت في الغالب لأداء الوظيفـة الانتباهيَّـة بعـد أن أفرغـت من معانيها الأصليَّة، وعليه كانت الوظيفة التأثيريَّة وظيفـة ثانويَّة في غالب النمـاذج الشعريَّة لبنية الاعتراض. وقد نلمس هيمنة الوظيفة التأثيريَّة على بنية الاعـتراض إذا كانت صيغ الدعاء وما أشبهها ممَّـا لم يكثر استعمالـه في الشعر، فإن هذا يجعل معناها محفوظًا ومن ثَمَّ أثرها.

- نظر البحث إلى عبارة «لا أبا لك» بوصفها عبارة مصكوكة فقدت معناها الأصليَّ واحتفظت بقوَّة التأثير في المخاطَب، لا بمفهوم التأثير الذي يغيِّر قناعـات المخاطـب، ولكن بمفهـوم قدرتها على لفـت انتباهه نحـو عناصر الخطـاب الأساسيَّة التي تحدث التأثير الحقيقي.

- نبَّـه البحث إلى أن الإحـساس الحاضر بوظيفة ما عنـد تناول الشعر القـديم منخفض إلى حدٍّ كبـير، قياسًا إلى الإحساس بها عند قول الشعر أوَّل مرَّة، فالفرق بين الخطاب المرسَل عبر قناة النطق والمرسَل عبر قناة الخطِّ يكون بارزًا وقويًّا. وهـذا أمر ينبغـي للناقد الحديـث أن يأخذه في الحسبان عند مقاربة النص الشعريِّ القديم.

- أدَّت بنيـة الاعـتراض الوظيفـة التعبيريَّـة من خلال حضور الـذات المتكلِّمة بآمالهـا وآلامها، هذه الـذات التي تجلَّت نصِّيًّا في ضمائر المتكلِّم وأساليب الإنشاء غير الطلبيَّة، والطلبيَّة أحيانًا، وتعبيرات أُخَر.

- هيمنة الوظيفـة الانتباهيَّة على بنية الاعتراض جعـل جملـة الاعـتراض تُفـرَغ مـن محمولهـا الدلاليِّ وتُصرَم حبالُ الإحالة فيها، وهو ما قلَّل فرص حـضور الوظيفة المرجعيَّة في هذه البنية، وانحصر حضورهـا الثانويَّ إلى جانب الوظيفة الانتباهيَّـة في شكل محـدَّد مـن أشكال الجملة الاعتراضيَّـة هـو شكل الجملـة الخبريَّـة ذات الطابـع الحكميِّ العـامّ، والتعبير الحِكميَّ مثقل بالإحالات؛ لأنَّـه خلاصة تجربة إنسانيَّة طويلة، ويحيل إلى سياق نموذجيٍّ.

- اتَّـسم التعبـير الحكمـيُّ في بنيـة الاعـتراض في معظم نماذجهـا في الشعر العربـيِّ القديم بأربع

سمـات، الأولى، أنَّ غالب نماذجهـا جاء في آخر الصدر، والظاهر أنَّ هذا كان من أجل أن يستقلَّ العَجُزُ بالمعنى الأساسيِّ الذي يقصد إليه الشاعر وتنبِّـه إليه الجملة الاعتراضيَّـة. الثانية، أنَّ أكثر نماذجهـا جاء في صورة جملة اسميَّة، وقد ناسب هـذا سيـاقَ الحكمـةِ لأنَّ الاسم أدلُّ على الثبات والعموم لتجـرُّده من الزمن، وهـو ما تحتاج إليه الحكمة لتبقـى وتنتشر، وقـد كان المبتدأ في هذه الجملة دالًا على العموم من خلال وسيلتين، تعريف المبتـدأ بأل الاستغراقيَّة، وتنكيره. الثالثة، أنَّ جلَّ الجمـل الاعتراضيَّـة الحكميَّة يتكـوَّن من لفظين أو ثلاثـة، والظاهـر أنَّ ذلـك يعـود إلى الحرص علـى أن تظلَّ الجملة الاعتراضيَّة في حيِّز الصدر لِمَـا ذكرنا من حـرص آخرَ علـى أن ينفرد العجز بالمعنـى الأساسيِّ في البيت، ولكونها معترضةً في الصدر كان لا بدَّ من وجود ألفاظ أخرى تزاحمها فيه فـكان هذا داعيًـا آخـر إلى إيجازها، فضلا عـن أنَّ سيـاق الحكمة نفـسه يقتـضي الإيجاز. الرابعـة، أنَّ معظمها جـاء تاليًا لضمـير المتكلِّم البارز والمستتر، فأدَّت هذه الجمل وظيفةً تعبيريَّة واضحة إلى جانب الوظيفة المرجعيَّة.

- لم تتحقَّق الوظيفة الشعريَّة داخل بنية الاعتراض، وإنما تحقَّقت في توازي بنية الاعتراض مع أجزاء أخـرى من النـصِّ الشعـريِّ، وفي هـذا الإطار وجدنا شكلين للتـوازي، الأوَّل، توازٍ بين جملتين اعتراضيَّتـين (ثنائيُّ الاعتراض)، وكان يتحقَّق بطريقتـين أفقيَّـة ورأسيَّـة. والثاني، تـوازٍ بين عنـصر في الجملة الاعتراضيَّـة وآخر خارجها (أحاديُّ الاعتراض)، يكـون سابقًا عليها تارة، وتاليًا لها أخرى، وفي الحالة الأخيرة كان اللفظ الآخر يتموقع في ضرب البيت (المقطع) فيتحقَّق قدر كبير من التوازي الإيقاعيِّ أو الدلاليّ.

- كـشف البحـث عـن وعـي لـسانيٍّ لـدى النقَّاد القدمـاء أكثر تقدُّمًـا من البلاغيِّـين والنحاة، والنقَّـادُ المقـصودون هنـا أولئك الذيـن كانوا على احتكاك اختباريٍّ طويـل الأمد بالنصوص الشعريَّة (الشرَّاح) أمثال المرزوقيِّ والزوزنيّ.

هذا، ويوصي البحث بأن تُدَرَسَ بنية الاعتراض في ضوء النظريَّـات النقديَّـة الحديثـة، في أطـر محدَّدة زمانيًّا أو مكانيًّا أو مدرسيًّا، وتكون مدعَّمة بالإحـصاء. كما يوصي بتطبيـق نظريَّة الاتِّصال لرومان جاكبسون على بنى ونصوص أكثر اتِّساعًا؛ لِما تعد به هذه النظريَّة من نتائج.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا المصادر

1. امـرؤ القيس، ديوان امرئ القيـس، تحقيق، محمَّد أبـو الفضل إبراهيم ، دار المعـارف، القاهرة، ط4، 1984م.
2. ابـن أبي الإصبع (أبو محمَّـد، عبد العظيم بن عبد الواحد)، تحرير التحبـير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز .
3. ابـن أبي الحديد (أبو حامد، عبـد الحميد بن هبة الله)، شرح نهج البلاغة، تحقيق، محمَّد إبراهيم ، دار الكتاب العربي، بغداد، ط1، 2007م.
4. ابـن الأثير (ضيـاء الدين، نـصر الله بن محمَّد)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق، أحمد الحوفي وبـدوي طبانـة، دار نهـضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

5. ابن رشيق (أبو علي، الحسن بن رشيق)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق، محمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م.

6. ابن القيِّم (أبو عبد الله، محمَّد بن أبي بكر)، التبيان في أقسام القرآن، تحقيق، محمَّد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

7. ابن منقذ (أبو المظفَّر، أسامة بن مرشد)، البديع في نقد الشعر، تحقيق، أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهوريَّة العربيَّة المتَّحدة.

8. ابن هشام (أبو محمَّد، عبد الله بن يوسف)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق، مازن المبارك ومحمَّد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط6، 1985م.

9. البُسْتيّ (أبو الفتح، علي بن محمَّد)، ديوان أبي الفتح البستي، تحقيق، درِّيَّة الخطاب ولطفي الصقَّال، مطبوعات مجمع اللغة العربيَّة بدمشق، دمشق، 1989م.

10. البحتريّ (أبو عبادة، الوليد بن عبيد)، ديوان البحتريّ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه، حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1964م.

11. البغداديّ (عبد القادر بن عمر)، خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب، تحقيق وشرح، عبد السلام محمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997م.

12. التبريزيّ (أبو زكريَّا، يحيى بن علي)، شرح ديوان أبي تمَّام، قدَّم له ووضع هوامشه وفهارسه، راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1994م.

13. الزوزنيّ (أبو عبد الله، حسين بن أحمد)، شرح المعلَّقات السبع، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1972م.

14. السكاكيّ (أبو يعقوب، يوسف بن محمَّد)، مفتاح العلوم، تحقيق، عبد الحميد هنداويّ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 2000م.

15. الصولي (أبو بكر، محمَّد بن يحيى)، كتاب الأوراق - قسم أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، تحقيق، ج. هيورث. دن، الهيئة العامَّة لقصور الثقافة، القاهرة، 2004م.

16. العبَّاس بن الأحنف، ديوان العبَّاس بن الأحنف، شرح وتحقيق، عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصريَّة، القاهرة، 1954م.

17. العبَّاسي (أبو الفتح، عبد الرحيم بن عبد الرحمن)، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق، محمَّد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت.

18. العسكريّ (أبو هلال، الحسن بن عبد الله)، معجم الفروق اللغويَّة، تحقيق، الشيخ بيت الله بيات ومؤسَّسة النشر الإسلاميّ، مؤسَّسة النشر الإسلاميّ، قم، ط1، 1412هـ.

19. العلويّ (يحيى بن حمزة)، الطراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصريَّة، بيروت، 1423هـ.

20. القزوينيّ (أبو عبد الله، محمَّد بن عبد الرحمن)، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح، محمَّد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالميَّة للكتاب، بيروت، ط3، 1989م.

21. المتنبِّي (أبو الطيِّب، أحمد بن الحسين)، ديوان أبي الطيِّب المتنبِّي، تحقيق، عبد الوهَّاب عزَّام، دار الجمهوريَّة للصحافة، القاهرة، 2006م.

22. المرزوقيّ (أبو علي، أحمد بن محمَّد)، شرح ديوان الحماسة، نشره، أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م.

23. النابغة الذبيانيّ (أبو أمامة، زياد بن معاوية)،

ديوان النابغة الذبيـاني، تحقيق، محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م.

24. جريـر بـن عطيَّـة، ديـوان جريـر (بـشرح محمَّد بـن حبيـب)، تحقيـق، نعمـان محمَّـد أمـين طه، دار المعارف، القاهرة، ط3.

25. كثـيِّر عزَّة (أبـو صخر، كثـيِّر بن عبـد الرحمن)، ديـوان كثيِّر عـزَّة، جمعه وشرحه، إحـسان عبَّاس، دار الثقافة، بيروت، 1971م.

26. مجموعة مـن الشعراء الهذليِّين، ديـوان الهذليِّين، تحقيق، أحمد الزيـن ومحمود أبو الوفا، دار الكتب المصريَّة، القاهرة، 1965م.

27. نُصَيْب بن رَبَاح، شعر نصيب بن رباح، جمع وتقديم، داود سلُّوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1967م.

ثانيا المراجع

1. إبراهيـم أنيـس وآخرون، المعجـم الوسيط، المكتبة الإسلاميَّـة للطباعـة والنشر والتوزيـع، استانبول، 1972م.

2. الزِّرِكْلـي (خـير الدين بن محمـود)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.

3. الطاهر بومزبر، التواصل اللسانيُّ والشعريَّة، الدار العربيَّة للعلوم، بيروت، ط1، 2007م.

4. المجمَّـع الثقـافيّ، الموسوعـة الشعريَّـة، أبوظبـي، الإصدار الثالث، 2003م.

5. أحمـد مطلـوب، معجـم المصطلحـات البلاغيَّـة وتطوُّرهـا، مطبعة المجمع العلمـي العراقي، بغداد، 1983م.

6. جاكبـسون (رومـان)، قضايـا الشعريَّـة، ترجمة، محمَّـد الولي ومبـارك حنـون، دار توبقـال، الدار البيضاء، ط1، 1988م.

7. جمال الدين بن الشيـخ، الشعريَّة العربيَّة، ترجمة، مبـارك حنـون ومحمَّد الـوالي ومحمَّـد أوراغ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1996م.

8. صلاح فـضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1998م.

9. عبد الـسلام المـسدِّي، الأسلوبيَّة والأسلـوب الدار العربيَّة للكتاب، تونس، ط3.

10. عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربيَّة، بيروت، 1985م.

11. عبـد الله الغذَّامي، الخطيئة والتكفير، من البنيويَّة إلى التشريحيَّـة، الهيئـة المصريَّة العامَّـة للكتاب، القاهرة، ط4، 1998م.

12. عبـد الواحـد المرابـط، السيمياء العامَّـة وسيمياء الأدب، الدار العربيَّة للعلوم، بيروت، ط1، 2010م.

13. فاطمـة الطبّال بركة، النظريَّة الألسنيَّة عند رومان جاكبـسون، المـؤسَّسة الجامعيَّـة، بـيروت، ط1، 1993م.

14. كاهنـة دحمون، الجملة الاعتراضيَّة بنيتها ودلالتها في الخطـاب الأدبـيّ – دراسة في ضوء النظريَّـة التداوليَّـة، مخـبر تحليـل الخطاب التابـع لجامعة مولود معمري، الجزائر، 2012م.

15. هـاشم طـه شلاش، ضمـرة بـن ضمـرة النهشلي أخبـاره وما بقي من شعره، مجلَّة المورد، المجلَّد 10، العدد 2، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1981م .